صيحة طبيب إنسان

لإنقاذ العمال من الانتحار بالجوع

بقلم الأستاذ سيد قطب

قدم الدكتور الفاضل عبد المجيد رمزى مدير قسم المسائل الصحية بوزارة الصحة إلى معالى وزيرها مشروعا لتحسين الحالة الصحية والاجتماعية للعمال . وردت فى مقدمته هذه الفقرات :

"إن هذا البلد سائر فى طريق الفناء، يأكل بعضه بعضا كلما كثر السكان، ونشطت الصناعة والأعمال فيه . وأرى أنه لابد من العمل السريع لتحسين حال العمال صحيا واجتماعيا لدرء هذا الخطر الناتج عن قلة الأجور ، وأنه لا فائدة من كل علاج أو إصلاح آخر .

"وانى بصفتى من رجال الصحة أطلب رفع أجور العمال مهما كانت النتائج الاقتصادية. فما نطلب إلا حقا شرعيا ، فان كانت أوضاعنا لاتطابق هذا الحق فيجب أن نعدلها ، لأن المبادئ الاقتصادية فى جميع أنحاء العالم كلها تقر بما للفرد من حق الحياة . ولهذا يجب أن تنتهى من هذه المشكلات الصحية لتتفرغ الوزارة لأعمال صحية أخرى كمسون النسل وتكوين البنية المصرية" .

وهذه صيحة إنسان قبل أن تكون صيحة طبيب ، أو صيحة طبيب إنسان ، يهوله انحدار الطبقات العاملة إلى الموت البطىء بالجوع بسبب حالة الغلاء الراهنة .

بين يدى وأنا أكتب هذه الكلمة إحصاء عن الأرقام القياسية العامة لنفقات المعيشة فى شهر أبريل الماضى ، ومنه يتبين أن هذا الرقم هو ٢١٦ (١٠٠ سعر ما قبل الحرب) مقابل ٢١٢ فى شهر مارس السابق عليه . وفى ابريل سنة ١٩٤١ كان الرقم القياسى ١٦٤ أما فى ابريل سنة ١٩٤٠ فكان ١٣٧ فقط .

ولقد كان مستوى معيشة هذه الطبقات منحطا الى أقصى درجات الانحطاط قبل الغلاء وقبل ارتفاع الأسعار الى هذا الحد المبهظ ، فكيف يكون هذا المستوى الآن ؟ إنه يكون كما يصفه حضرة الطبيب الإنسان حين يقول : "إن هذا البلد سائر فى طريق الفناء يأكل بعضه بعضا ."

ويقول حضرة الطبيب فى صيحته الإنسانية : "وانى بصفتى من رجال الصحة أطلب رفع أجور العمال مهما كانت النتائج الاقتصادية" فنفهم من هذا أنه لم يشأ الدخول فى تفصيلات اقتصادية لأن الخطر الذى يراه ماثلا أمامه تهون بإزائه كل العوامل الاقتصادية

فحسب أن نقول لحضرته ولمن يخدعون بتهويلات أصحاب رءوس الأموال عن أخطار رفع الأجور وعن أثرها فى اضطراب الموازين الاقتصادية فى محيط الصناعات: إن هذه الأخطار لا وجود لها فى الظروف الحاضرة ، وإن أرباح الشركات والملاك فى هذه الأيام مضاعفة أضعافا كثيرة ، ولن تتأثر بارتفاع أجور العمال إلى الحد المعقول .

وعلى سبيل المثال نورد الجدول الآتى الذى يبين ارتفاع أسعار الأسهم فى بعض الشركات .

اسم الشركة	سعر السهم فى ٢٩-٤-١٩٣٩	سعر السهم فى ٣٠-٤-١٩٤٢	الزيادة المئوية
الملح والصودا	١٣١,٥ قرشا	٤١٥ قرش	٢١٥ فى المائة
المالية والصناعة	٣٦٧,٥ »	١٥٧٠ »	٣٢٧ »
العزل الأهلية	٤٩١ »	١٤٦٠ »	٢٩٧ »
مصر للغزل	٥٠٠ »	١٣٠٦ »	٢٦١ »
الأسمنت المصرية	٧١٠ »	١٩٠٠ »	١٦٧ »
حلج الأقطان	٤٢,٦ »	٨٦ »	١٠٠ »
بوموتى	٣١٦,٣ »	١٥٠٦ »	٣٧٦ »
الكراون بروورى	٣٨٩,٦ »	١٥٠٠ »	٢٨٥ »

فما معنى هذا ؟ معناه أن رأس مال حاملى الأسهم قد تضاعف عدة مرات ، فى حين أن أقصى زيادة وصلت إليها أجور العمال فى بعض الشركات هى ١٠ فى المائة وفى أحوال نادرة بلغت ٢٥ فى المائة لصغار العمال ، بينما لم تزد شيئا فى شركات أخرى كثيرة .

وأما كبار الملاك والزراع فقد زادت أرباحهم كذلك بما يقرب من هذه النسب إذ ارتفعت أثمان الأراضى وإيجاراتها كما ارتفعت أثمان المحاصيل ارتفاعا فاحشا بالنسبة لما قبل الحرب ، ولم يزيدوا أجر العمال فى أراضيهم إلا بنسب ضئيلة . وحسبنا أن نذكر أن ثمن إردب القمح كان قبل الحرب لا يتجاوز ١٧٠ قرشا فوصل الآن إلى نحو ٤٠٠ قرش فى السوق الحرة ، بل وجد من التجار المهربين من يشترى الإردب بخمسة جنيهات . فكانت نسبة الزيادة المئوية تعادل ٢٥٠ ٪ تقريبا .

فإذا فرضنا أن نفقات الانتاج قد ارتفعت بما يعادل ١٠٠ ٪ كان من ذلك أن صافى أرباح الملاك والمزارعين حوالى ١٥٠ ٪ على أقل تقدير .

فما معنى هذا وذلك؟ معناه أن الأثرياء يزيدون ثراء بسبب الحرب، وأن الفقراء يزيدون فقرا ، وأن الملايين العاملة فى هذه البلاد تتعرض للانتحار عن طريق الجوع ، كما تتعرض الثروة القومية للبوار فى سبيل إشباع نهمة لا تشبع ، وفى سبيل الترف الذى يتمتع به بضعة ألوف من الأغنياء ؟

وبينما تتجه مصر وحدها دون بلاد العالم هذ الاتجاه الخطر نسمع مستر إيدن وزير خارجية انجلترا يخطب فى أدبره فيقول :

" أول شيء يجب أن نعمله هو أن نفهم الأمور بغير الطريقة التى فهمناها بها من قبل فنؤمن بأن علينا تبعة مباشرة لا مفر منها وهى تبعة صون السلام فى جميع العصور .

" ولن تذوقوا طعم السلام بدون إصلاح اجتماعى، فإذا انتهت الحرب وأصبح فى هذه البلاد ثلاثة ملايين من العمال المتعطلين عن العمل ، وفى أوروبا وأمريكا وآسيا ملايين غيرهم فان العالم لن يعرف معنى السلام .

" وإذا ظهرت فى العالم آثار البطالة وسوء التغذية وهبوط مستوى المعيشة إلى درجة الحيوانات ، وانتشرت الفاقة بدون علاج مع إمكان علاجها فإن أركان السلام تصبح معرضة للخطر "

فهذه كلمات رجل عظيم متسع الآفاق لا تلهيه مشاغل الحرب والسياسة عن النظرة البعيدة إلى حقيقة المؤثرات الاجتماعية العالمية، فهو يعلق سلام العالم على الاصلاح الاجتماعى الذى يكافح التعطل، ويقاوم سوء التغذية وهبوط مستوى المعيشة، وهو ينذر مستمعيه بأنهم لن يجدوا السلام إذا أهمل هذا الإصلاح .

وكل الدلائل تشير إلى أن العالم كله يتجه هذا الاتجاه، وأنه لا مفر لأمة من أمم الأرض عن مسايرة التيار ؛ و إلا كانت ناشزة فى عالم يتجه كله وجهة معروفة .

إن انجلترا تجبى الآن من الضرائب ما يساوى ٩٥ فى المائة فى بعض الحالات وأمريكا تجبى ٩٩ فى المائة فى أحوال خاصة ، وتبلغ النسبة فى تركيا ٩٠ فى المائة كذلك . ويخطئ بعض من يعتقدون أن ضرورات الحرب وحدها هى التى تقتضى رفع نسبة الضرائب على الإيرادات العالية، وأن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه قبلها . فقد تنخفض هذه النسب بعد الحرب ، ولكنها لن تعود إلى ما كانت عليه ، لأن الاتجاه العالمى كله يحاول تحقيق العدالة الاجتماعية كما يحاول تقريب الفوارق بين الطبقات وهذه الضرائب وسيلة لا بد منها لتحقيق هذين الغرضين، كما أنها وسيلة لتنهض الميزانيات العامة بما يطلب اليها من الخدمات الاجتماعية .

وكذلك الحال فى العناية البادية بالطبقات العاملة فى جميع شعوب الأرض ، فليس منشؤها أن هذه الطبقات هى أدوات النصر فى الحرب الحاضرة حسب ، ولكن منشأها هو هذا الاتجاه العالمى نفسه إلى تحقيق مستوى عادل للمعيشة بين هذه الطبقات يتحقق معه السلام الذى ترجوه الشعوب بعد هذه الأهوال .

وكل إصلاح صحى أو اجتماعى مقضى عليه بالفشل ما لم يرتفع مستوى حياة هذه الطبقات ، وقد دلت كل المحاولات التى أرادتها الهيئات الاجتماعية على هذه الحقيقة . فالدكتور عبد المجيد رمزى يقول : " وأرى أنه لا بد من العمل السريع لتحسين حال العمال صحيا واجتماعيا لدرء هذا الخطر الناتج عن قلة الأجور ، وأنه لا فائدة من كل علاج أو إصلاح آخر" . ومستر " رز بلنى" الذى تبرع بعدة إصلاحات اجتماعية فى "عزبة الحديدى" لتحسين حال مزارعيه يقول فى كتاب منه بجريدة الأهرام بعد أن نوهت بعمله الاجتماعى المشكور :

" قرأت بكثير من الاهتمام البيان المنشور فى الأهرام عن الطرق المتخذة عندنا منذ بضع سنوات لتحسين حالة الفلاحين ومعيشتهم . وإنى أشكركم كل الشكر على اهتمامكم بهذا العمل. غير أنى أرى من واجبى أن أقول : إن كاتب البيان قلل من ذكر المانع الأساسى الحائل دون هذا التحسين ، وهو ضآلة إيراد السكان الزراعيين .

" وإنى لأعترف بالرغم مما أراه من فلاحينا من صدق المعونة وحسن الإرادة بأن النجاح الذى أمكن تحقيقه لهم فيما يختص بالصحة ونظام المعيشة ما زال قليلا لا يذكر ، وذلك للسببين الآتيين :

" الأول — إن قلة كسبهم لا تسمح لهم بأن يتناولوا ما يحتاجون اليه من الأغذية الصالحة اللازمة لشفائهم من الأسقام التى يشكون منها . فهم بالرغم مما يتيسر لهم من الأدوية والإرشادات الطبية لا يفارقهم فقر الدم وضعف البنية .

" الثانى — أنه ليس عندهم من قطع الملابس ما يمكنهم من تغيير الأثواب التى يلبسونها ، وهم لذلك لا يستطيعون استعمال هذه الأثواب القليلة بحالة نظيفة ملائمة . ولما كان هذا يتعذر معه تنظيف أجسامهم فإنهم يظلون معرضين للأمراض الجلدية والجراثيم وغيرها .

" وإذا كنت قد أردت إبراز هذه الناحية من المسألة ، فذلك لأنى أنا والمساعدة الاجتماعية نرى أن الخدمة الاجتماعية والمعاملة القائمة على الرفق والإحسان لا تكفيان وحدهما لإحداث تحسين محسوس فى حياة الفلاحين " .

وهذه الملاحظات العملية المبنية على التجربة من رجل لا يمكن اتهامه بالمغالاة والانحياز إلى صف العمال الزراعيين لأنه هو نفسه مالك كبير . . . هـذه الملاحظات جديرة بالنظر ، وبخاصة فى هذه الأيام التى يقدم فيها معـالى وزير الصحة مشروعه الضخم لتحسين القرية متضمنا مثل هذه الفقرات :

(١) إنشاء مغاسل ثياب وحمامات منفصلة للنساء والأطفال .

(٢) إنشاء حمامات للتلاميذ فى المكاتب العامة والمدارس الإلزامية القروية .

(٣) إنشاء عيادة طبية مجانية وخدمة صحية للقرى وسكانها وتلاميذها يتولاها طبيب مقترن على الشؤون الصحية القروية وعلى طرق تشخيص وعلاج ومنع الأمراض الأكثر انتشارا فى القرى ، وخاصة الأمراض المتوطنة ، والأرمد وأمراض الجلد والأمراض الوبائية وأمراض سوء التغذية ، ويتولى كذلك الدعاية الصحية بين الرجال .

فأشد مانخشاه ألا يجد هؤلاء القرويون من الثياب ما يغسلونه فى هـذه المغاسل ! وألا يجدوا من الثياب النظيفة ما يلبسونه بعد الحمامات ! وان يظلوا بسبب هذا معرضين للأمراض الجلدية والجراثيم وغيرها كما يقول موسيو "رزبيني" على الرغم من "الدعاية الصحية" التى يكفلها مشروع تحسين القرية . وأخشى ما نخشاه كذلك أن يتحقق ما يقوله موسيو رزبيني فى فقرة أخرى وهو : " إن قلة كسبهم لا تسمح لهم بأن يتناولوا ما يحتاجون إليه من الأغذية الصالحة اللازمة لشفائهم ... فهم بالرغم مما يتيسر لهم من الأدوية والإرشادات الطبية لا يفارقهم فقر الدم وضعف البنية " !

ذلك ما نخشاه ونخشى معه أن تضيع ثمرة هذا المشروع الضخم الذى ستنفق عليه الدولة مليونين ونصف المليون من الجنيهات فى كل عام ، والذى ترجو البلاد من ورائه خيرا عظيما للريف المحزون المحروم .

ومن الإنصاف أن يقال : إن معالى وزير الصحة أدى واجبه بهـذا المشروع ، وإن رجاله يؤدون كذلك واجبهم ، وإن أحدهم يصيح صيحة الإنسانية الصادقة فى تقرير رسمى مقدم للوزير . فاذا جاءت الريح بما لا تشتهى سفينتهم ، وإذا قصرت الوسائل الاقتصادية والتشريعية عن معاونتهم فى واجبهم ، وذهب تقصيرها بفائدة مشروعاتهم ، وبالأموال العامة المرصدة لهذه المشروعات ، فليس الذنب فى ذلك ذنبهم ، وليسوا هم المسئولين بعد هـذا الجهد المشكور .

ومما يدعو الى الأمل اهتمام وزارة الشؤون الاجتماعية بقوانين العمال ، وفى هـذا العدد كلمة مستفيضة عن هذه القوانين .

سيد قطب